مذكـــــــرات في عتمة الطفولة

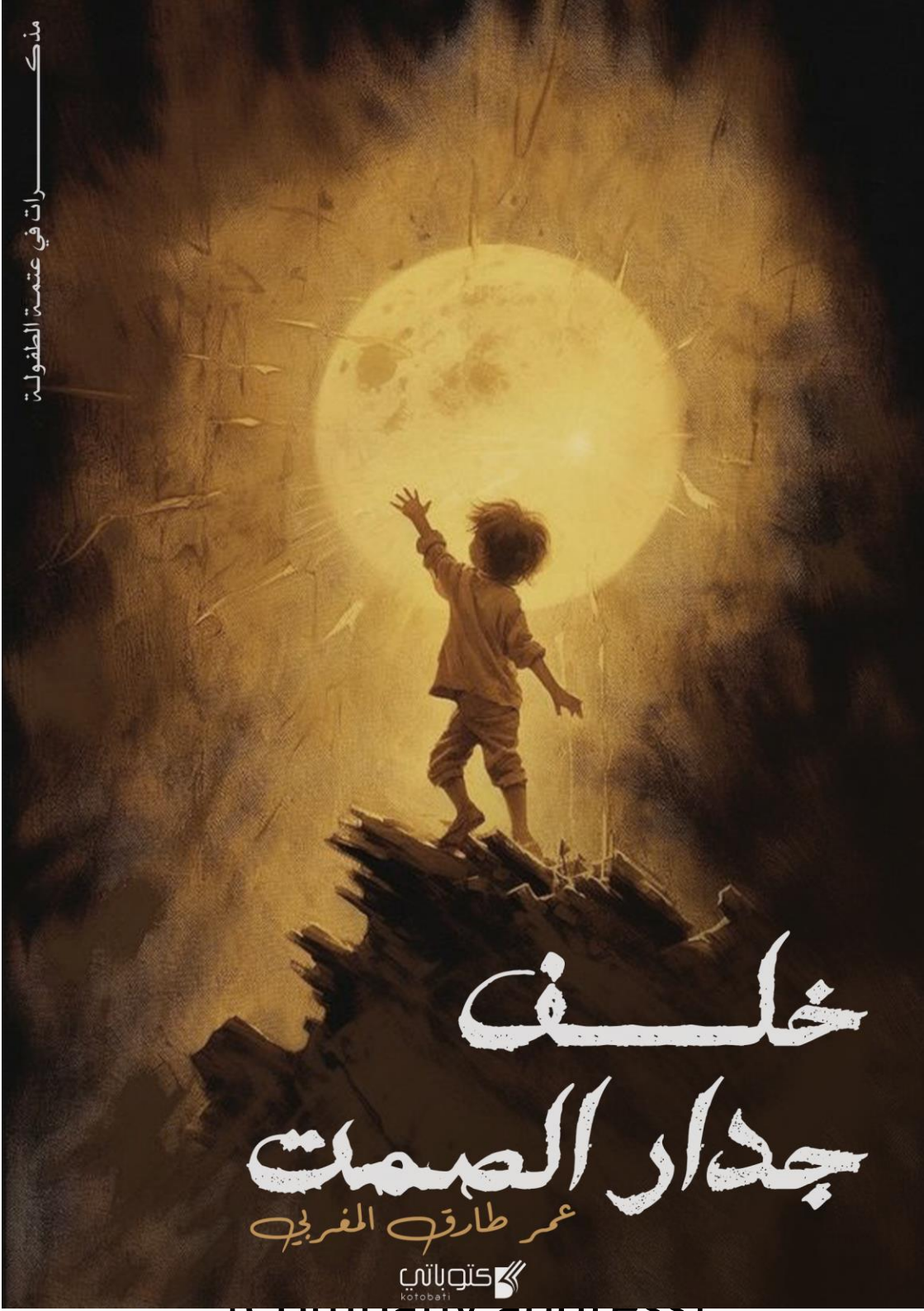

خلف جدار الصمت

عمر طارق المغربي

كتوباتي
kotobati

خلف جدار الصمت

مذكرات في عتمة الطفولة

عمر طارق المغربي

الكتـــــــــــاب: خلف جدار الصمت.. مذكرات في عتمة الطفولة

تـــــــــــأليف: عمر طارق المغربي

النوعيـــــــــــة: مذكرات ونصوص

صدر عن كتوباتي: 2024م

التنسيق والتصميم: مكتبة كتوباتي

النشر الإلكتروني: مكتبة كتوباتي

support@kotobati.com

www.kotobati.com

كل الأفكار المذكورة في الكتاب لا تعبر عن مكتبة كتوباتي.

وكل الحقوق محفوظة لدى المؤلف.

إهداء...

إلى كل من عانى في صمت...

إلى أولئك الذين وجدت فيهم القوة للاستمرار رغم الألم، أهدي هذه الرواية... هي صرخة من قلبٍ مُحطم، ولكنها أيضاً شهادة على قوة الروح البشرية في مواجهة أصعب الظروف. إلى الأمل الذي لا ينطفئ رغم كل العواصف، و إلى الشجاعة التي تتجلى في أعمق لحظات الظلام.

(عمر)

لمن يهمه الأمر:

كل الصور والمشاهد،الأحداث كذلك الحبكة، أخذتها من واقعي، من طفولتي الصامته، القاطنة بتلك الغرفه المظلمه...

في وسط الليل، فتح عيونه الخائفه، يرتجف بصمت، يضم وسادته الدافئه إلى صدره بقوى، عله يستمد منها العطف والحنان، يبكي بحرقة، الدموع ثائره على وجنتيه، كيف انتهى به الحال هنا؟، في كل ليلة، عندما ينهض القمر، ويكمل عويل بني آوه والذئاب مشاهد المشهد، عندما ينتصف الليل، يفتح عيونه بهدوء، في غرفته المظلمة ويبكي، لم يبكي؟ ما سبب كل هذه الشجون؟

يقال (أن من يمتلك أباً أمتلك عاموداً يستند إليه لبقية الحياة) ولكن ماذا على من فقده؟ ماذا على من دفع عمره ثمن خطاياه؟، لماذا تكذبون علينا؟ لماذا تنقلون لنا صورة مزيفة عنهم أخبرونا الحقيقه، شاركونا التعاسة التي تخفونها، هم سبب كل العقد والمصائب، هم سبب كل دمعه وآه، لا أريد أن يكون لي أبا ، لا أريد أن أنتسب لأحد، أريد أن أكون أنا وحدي أن أقف بكل قوة دون أي عامود،أما زلتم تتسألون لماذا أبكي؟ سأخبركم ولكن لا تحكموا عليّ من بعض السطور، أعلم أنكم كوفأتم بأب رائع لم أحظ بمثله، ولكن سأخبركم عن من سموه والدي، عن من أشعر بالعار لمجرد إنتسابي له، أعتذر

من كل شخص بكى بسبب هذه السطور ولكن لم أعد أحتمل أكاد أنفجر وأنا أكتم، وأنا أشتكي بسريري الصامت، مللت تبليل كل ليله وسادتي بالدموع هل ياترى باتت تكرهني، أرى الرفض بعينها عندما تأبى أمتصاص دمعه غادره سقطت عليها، بالوقت الذي أنهاره به، كان هو يعيش وكأنه يأخذ من عمري، من شبابي، من سنين وجودي لكي يعيش هو، تباً لك ولكل أب مثلك، ولكل أب شاهدته في حياتي، تباً لكم جميعا ...

لا تحكموا عليّ أخبرتكم أنني لم أقص عليكم حكايتي بعد، سأبدأ ولكن من حيث بدأت أفهم، وليس من يوم ولادتي أو زواج أمي بذلك الوغد الذي اسموه(والدي)...

*****

غفت العيون، بعد أن رقص القمر يكبد السماء فرحاً، فضمت قدميها وأطفالها الأثنين إليها، الرعد والبرق يشتدان بالخارج،الأولاد جائعون وهي كذلك، لكن من أين تطعمهم؟، فهي محبوسه بتلك الغرفه، التي لا يوجد فيها لا ضوء ولا أي أثاث، فقط ظلام يلف كل شيء، ظلام يعيش من طفولتي إلى الآن معي يلف وحدتي ويعشش في كل ناحيه من أنحاء قلبي، يتسلل ضوء

القمر الخافت من تلك النافذه الصغيره التي يجلس بمقدمتها قضبان من الحديد، تخال لك أنها سجن بصحيح، تضم أولادها بقوى علها تبث فيهم الدفئ، الذي تفتقده هي حتى، إبنة العشرون عام، يبدوا على ملامحها الثمانون، ما الذي حدث؟ ومن السبب؟، السبب هو ذلك الرجل الضخم القبيح، الذي يتمدد بجسده النصف عاري فوق سريره الدافئ، وبقربه فتاة ليل، لطالما عهدتها تضرب أمي عندما تطلب بعض الطعام، حفظت كل ملامحها، عيونها الصقرايه، وجسدها النحيل، لا أنسى ذلك اليوم الذي رمت فيه كوب الماء بوجه والدتي، إشتعلت أناملي، وهبت ريح الغضب بداخلي، طفل يبلغ خمس سنوات يحمل، كره وغضب رجل في التسعون عام من عمره،ركضت إليها مسدداً رأسي إلى بطنها اللعينه وأسقطها أرضاً، فزعت، أرتعبت أمي، خافت من ردة فعل ذلك الوضيع، الذي لم يعجبه فعلي، وترك كوب النبيذ من يديه الغاضبتين، ونهض عن سريره، جاء نحوي مسرعاً، فهبت أمي لترد عني كيده، فما كان منه إلى أن ركلها بخاصرتها حتى كادت تلفظ أنفاسها الأخيره، وأحكم قبضته بشعري القليل، وسحبني إلى الغرفه المظلمه التي لطالما كانت سجني، ونهال عليّ ضرباً، بسياطه تارةً وبالركل والصفعات تارة أخرى، وهكذا إلى أن لم يتحمل جسدي المزيد وراح نائماً

يحلم بفجراً آخر، فيه تشرق شمس الربيع وتزين السماء، وتزهر الورود، ويتبدل كل حال، ولكن لم يحدث هذا؟

أستيقظ على جسد والدته الذي يرتجف من الخوف والضرب، في تلك الغرفه وبقربه أخيه الذي يبكي بصمت لكي لا ينزعج ذلك الأخرق الذي يمارس الفحشاء في الخارج.

لا أدري كم ليلة نمتها دون أن أتناول الطعام؟

أو إن كان يوجد ليله نمتها دون أن أعنف بسبب أو بدون؟

لم أكن أمارس حريتي وحياتي كطفل إلى عندما يخرج ذلك الوضيع من المنزل، كل النهار ليبحث عن صيدٍ لذيذ ليقضي بها ليله ممتعه، بقرب النبيذ والمخدرات وأشكالها، كانت حينها لا تجرؤ والدتي على لمس شئ بالمنزل لكي لا نتعرض للضرب أو للإهانه، كان يقفل ذلك الوغد الشرير الباب، علاوة على قفل النوافذ التي تربثت من الخارج بقضبان من الحديد. يخبرنا بطريقه أو بأخرى أن لا نحاول العبث معه، او محاولة الهرب، حتى عند الخروج للخارج كان يحدد لنا وقت للعودة ولو تأخرنا القليل، كان الضرب جزائنا لا محال، أذكر ذلك اليوم الذي تأخرت به بمدرستي بسبب إحتفال

أجروه، ولم يسمح لأحدنا بالرحيل، عدت للمنزل خائف أرتعب، كان قد وقف كالعمود على الباب بجسده التخين، لم يسمح لي أن أتكلم او أبرهن حتى، جذبني من شعري، بقوة، أغلق الباب بخلفيتي قدمه، كنت أعتقد أن جزائي ضرب بالسياط أو الركل، لكن لا، كان أعظم، لقد حرقني، نعم مازالت آثار السكين المحمى إلى اليوم على جسدي، إضافة إلى السجائر التي طفت بعنقي أو بمعصمي، وكالعاده لم أتحمل، وفقدت الوعي، ولكني لم أصحى على جسد والدتي التي ترتجف هذه المره، بل كنت لوحدي بتلك الغرفه، والعجيب أن يدايه قد ربطت، وفمي أغلق بشريط لاصق، رحت أبكي، وأضحك، أبكي على حالي وحلتي، وأضحك عندما أذكر ذلك الحفل الجميل، لقد رأيت فتاة جميله جداً، لطالما أحببتها، كانت ترقص، تستدير، وتتمايل بفستانها الأبيض الناصع، حورية نادره، تركت الحفل وأنا أركز نظري عليها، إليها فقط، تلك الظلمه الرائعه، في هذه الغرفه التي شهدت على أمرّ أيامي، ومواجعي ورسمت بظلامها دموعي، كانت رائعه، لأنني أحصل بها على هدوء، أحلم بها بسلام، لا يمكنني رأيت ذلك الوحش الذي يعيش على معاشرة فتيات الليل والسكر والتعاطي، في تلك اللحظات فتحه الباب،

أرتجف قلبي و إرتعد،وسحبت جسدي إلى الزاويه، لكنه إطمأن عندما رمى ذلك النجس أمي المنهكه، إلى داخل الغرفه.

******

أمي (كارمن) كانت كأي فتاة لبنانيه جنوبيه في ذلك الوقت، تربى على عادات جاهله، غذت هويتهم، وأصولهم حتى أضحو عبيداً لها، درست رغماً عن عائلتها، فمارس عليها والدها أنواع الظلم والعنف، ولكنها صبرت،وتأملت، ودعت ربها بكل صدق، وعندما بلغت وصارت الأنظار تلتفت إليها، كثر قول أولئك الجهال، الذين نصوا أن المرأه مكانها المنزل فقط، ما دفع أهلها إلى بيعها إلى أول رجل تقدم لها، بليد، قبيح الهيئه والبنيه، ولأن والدتي لم تُسأل حتى تعطي رأيها، فإنها أجبرت عليه، ولكنها فكرت بأنه سيكون طريقاً لخلاصها، وكان هكذا ولكن ليس من الظلم التي كانت تعيشه بل من الحياة، فكان سيء الطباع أكثر، أرغمها على التقرب منه، فكان أقذر رجل عرفته تلك الفتاة البريئه، ولأن العادات لا ترضى بالطلاق، وكأن المطلقه نكره بمجتمعاتنا، خافت كارمن من أن يطلقها، رغم أنه منعها

من تحصيلها العلمي ومن الخروج، وكان يظن بها دائماً ويشك بها وهي معه بنفس المنزل طيلة النهار، ومثله مثل أي رجل عندما تنجب زوجته، يمل، ويذهب للبحث عن البديل، وكأنهم أسطورة الجمال هم، ذلك المعتوه لم يكن أمامه سبيل سوي فتيات الليل، لأنه لا توجد فتاة بكامل قواها العقليه ترضى به، وعن جهت والدتي رحبت بداخلها بالأمر فوجدت بهذا خلاص من التقرب منه، ولكن إزداد عنفه وقسوته، وصار يضرب ويعنف أطفاله الإثنين بشراسه.

*****

كانت والدتي تعتاد على الصلاة، فكنت أراقبها من بعيد وهي تصلي وتدعي ربها بأن يخلصها مما هي فيه، كنت أتسأل لماذا تسأل الله دائماً؟ رغم أن الله سبحانه وتعالى لم ينقذها حينها، سألتها فأخبرتني:

يا ولدي إن الله قريب، يسمع وجبره لا بد أن يأتي ولو طال، والله يعلم ونحن لا نعلم، وبكل فعل عناية ربانية، فصبرا ، فالله مع الصابرين، ولا تيأس فما ربك بظلامٍ للعبيد، ولكنه يمهل ولا يهمل...

طلبت منها حينها أن تعلمني الصلاة، هنالك الكثير لأشتكيه لربي، على الرغم من معرفتي أنه يرى، قمت للصلاة بعد الوضوء، سجدت بعد الأنتهاء، شعور غريب شعرت به لأول مره، وكأن هنالك يد حنونه أمتدت لتنقذني في وسط ضياعي، راحه وسكينه إجتاحت وجودي، وبدلت حياتي، شعرت بقشعريه سرت لجسدي فجأة، لم أطلب شيء، أو أقول شيء، رغم كل ما أحمله بقلبي، أكتفيت بالبكاء طيلت الليل بعد ذلك الشعور المريح الذي شعرت به.

شعرت بعظمة. ذلك الخالق الذي لا ينسى أحد، ولا يظلم عباده، وتذكرت ذلك الظالم الذي يقطن بالخارج بقرب فتاة جديدة، وهمست(لكل ظالم يوم)... كانت مدرستي نفسي الوحيد، وراحتي للخلاص من ذلك الظلم، وهروبي للصلاة أيضاًأاتذكر عندما يخرج جميع الطلاب كلٍ يأخذ بيده والده، يحميه بمظلته من المطر، كم تمنيت أن يكون لي أب هكذا يحمل مظله، يقلني بها من مدرستي، أرجع إلى حضنه عندما أخاف، ألجأ إليه عند كل حاجه، كان المطر يغسلني من رأسي حتى أقدامي ماعاد يمرضني، فقد إعتاد جسدي الهزيل على هذا، أكره كل الأباء، حتى أولئك الذين يشعرون، ما كان يومًا واحد لي أن أحصل فيه على أي بديل، يعطيني الحب والحنان ما ذنبي؟

ما الذي فعلته حتى ألقى كل هذا؟

عدت لسجدت صلاتي أبكي بين يدين ربي، بحرقة بالغة، الفتاة التي أحبها تحب غيري، حتى أنها لا تراني، كانت تسخر مني أيضاً في بعض الأحيان، بين جدران الغرفة في ظل هذا الظلام دخل هو بجسده الضخم، مخموراً، أرعبته صورتي وأنا ساجد راح يضربني بغضب، يتلذذ بتعذيبي، وأنا أبكي، أصرخ، وأتألم مع كل ضربة سياط، فهذه المره لم يكن هناك رقيب على أفعاله أو حدود، ساعة على وجهي، عنقي، ظهري، قدماي، وتواصل الضرب، وأنا أنتظر اللحظة التي أرحم بها وأفقد الوعي، ولكن لا، كل شيء كان ضدي حينها، لذلك أستسلمت، للسياط، للحياة، لم أعد أهتم، لا أريد شيئا بعد الآن، وتواصل الضرب لساعة أو أكثر لا أدري، لكنه توقف في النهايه عندما تعب، بسق بوجهي ورمى عليّ اللعنات والسباب، لم أقدر على الحراك أستسلمت لضعفي، ونمت هناك على تلك الأرض، كالعادة ومنذ متى أنام على سرير كبقية الأطفال؟.

أستيقظت ثاني يوم على يد حنونه، تمسح جراحي والدماء التي تناثرت على وجهي، بدموعها، كانت تمسحهم، لأننا كنا محرومين من الماء والطعام في

ذلك اليوم، ما جعلني أبتسم وأتظاهر بالقوة، هي عيونها الخائفه، همست بصوت يكاد يطلع من حنجرتي

(كارو)

كانت تحب والدتي أن ألقبها بهذا اللقب لطالما ناداها أخيها الصغير به، عانقتني وأجهشت في البكاء، عانقتها وطمأنتها أن كل شيء سيكون على ما يرام، فعلاً بعد ذلك اليوم أختفى اللعين ولم يعد للمنزل، لم يكن هنالك شيء للأكل، والأبواب مقفله ولكنه يكفينا أن ننام هادئيين مرتاحين البال، كانت أجمل ثلاث أيام بحياتي، لأول مره أرى فيها والدتي تبتسم لأول مره ألعب بحريه، وأمارس طفولتي، أصلي براحتي، دخلت إلى غرفته بعد أن كان منعاً باتاً علينا الدخول لم أادخلها يوماً، شاهدت سرير كبير ذهلت، لقد شاهدت مثله بالتلفاز الذي أشغله سراً عند غيابه عن المنزل، ما كنت أخاله واقع، كان هنالك أيضاً مدفئه كهربائيه، عيوني ظلت تتنقل بالغرفه بذهول وعجب، إلى أن وقعت عيني على مرآه تعلقت على باب الخزانه، هل هذا أنا، لها الحق لا تنظر إليّ تلك الفتاة، كان يبدوا عليّ رجل بالأربعون، لا طفل بالعاشره، يقال أننا أحيانًا نكبر فجاة دون اأ نشعر وهذا ما حدث مع (عمر)، كان ينظر إلى المرآة من عمر وعيه الداخلي لا مظهره، تحسستُ تلك الجروح التي كست

وجهي، وأنتشرت دمعه غادره على وجهي،مسحتها بكم كنزتي المهترئه، التي لطالما رقعتها لي والدتي، بإبرة كانت دائما تنغزها، لعل هذه الدمعه دمعة حرقه، لما حرمنا منه كل هذه السنين رغم تواجده بالمنزل، وكذلك من الظلم؛ جذبني كيس مرتب، يقع على المنضده بقرب السرير، أنها حلويات، لم أتذوقها يوماً، سحبت العديد من القطع، وخبأتها بجيبي، وأردت الخروج، لكن وقعت عيني على درج المنضده، أكلني الفضول، هل من الممكن أن يحتوي على طعام؟ فتحته، لا، لا يوجد سوي ملف، فتحته، جذبتني صورة إمرأه، تفرد شعرها الطويل، جميله جداً، ترتدي فستان زفاف غايه بالجمال، هل يعقل؟ هل هذه أمي؟ كم تغيرت لقد شابت قبل الأوان، أخدت الصوره ودسستها في جيبي، وخرجت...

أطعمت اخي من الحلويات، عيونه كانت تلمع، مذهول، أخبرته بما رأيت، في الداخل، لم يصدق لذلك أراد الدخول ليرى بعينه،كذلك لا أنسى فرحت أمي بقطع الحلوى، لقد إزدادت إبتسامتها؛ عندما شاهد أخي ما شاهدته أنزهل وراح يقفز على السرير مسرورا فرحا ، بالتأكيد سيخبر أصدقائه هذا البريء غدا بما شاهده، لا يعلم أن كل البيوت الطبيعية هكذا؛ في تلك الليلة عاد (عثمان) من يسمى بوالدي، أستشاط غيظاً عندما شاهد السرير، وصاح

ساخطاً بنا، خفت على أخي كثيراً، لذلك أخبرته بأني من قفز، فانهال عليه ضرباً، وكالعادة جرى ما جرى، ولكن الغريب هو عصبيته المفرطة، والعدد الكبير من الرجال الذين كانوا يقصدون منزلنا، علمت أن هنالك أمر ما خصوصاً بعد عدم خروج والدي من المنزل كثيراً.

يوم بعد يوم، أستمرت العواصف تعصف بنا، ضرب، عنف، سياط، تعذيب، كل ما يخال لكم، ومع ذلك ما فقدت الأمل، ضللت أدعي ربي أرجوه بكل قلب صادق أن يحل علينا عدله ورحمته.

أتسأل اليوم لماذا كنت أمتلك كل هذا الأمل؟ هل لأني كنت على يقين أني سأتخلص من كل شيء يوما ما؟ أم مجرد شعور يدعوني للتسلح بالقوه لكي لا أنهار، عاودت الذهاب إلى المدرسه ولكن وحدتي إزدادت، بدأ الصمت يعشش في خليت نفسي، وصرت لا أبالي لأي شيء، بالضرب أو بغيره، بهذه الأثناء كثرت غيبات والدي عن المنزل ما فتح أمامي فرصه أكتشاف الحياة أكثر من خلال الحاسوب المتواجد بغرفته، آله عجيبه، لكن سرعان ما تعلمت عليها، وصدمت ذات يوم بكتاب إلكتروني ظهر فجأة خلال تصفحي أحدى المواقع الأدبيه، وكان يتحدث عن طرق كتابت الروايات، ضل السؤال في رأسي، هل يمكن أن أكتب كتاب بنفسي؟ سألت والدتي أخبرتني أنه نعم،

ولكنها لم تستطع أن تساعدني بمزيد من الأمور، لذلك ثاني يوم في المدرسه حدثت معلمتي عن ما يشغل بالي، فرحبت بالفكره وطلبت مني بدأ العمل على مشروع روايتي وهي ستقوم بنشرها إلكترونيا عن طريق حاسوبها، عدت إلى المنزل أفكر ما القصه؟، عن ماذا أكتب؟، كيف أعبر؟، وما هو الموضوع؟، بالطبع لجأت لوالدتي التي لطالما حدثتني عن جدتي، وحقها المقهور كأنثى بمجتمع لا يقر بحقوقها، أعربت والدتي عن حبها الشديد لجدتي وشخصيتها القويه، لكن أخظعتها العادات والتقاليد التي تنص على أن المرأه عار، ومن هنا بدأت الحكايه، بعد أيام كنت قد حبكة القصه كامله برأسي، وأخترت الشخصيات وحددت الأحداث، وبدأت الكتابه، إلى هنا ما زال والدي خارج المنزل لم يعد.

بظرف شهر انتهيت من الكتابة وحملت الأوراق إلى معلمتي، التي أنفرجت أساريرها وعبرت عن دهشتها وفرحتها لهكذا إنجاز، ولكن كنت مرعوب ماذا لو علم والدي؟، ماذا أفعل؟، قصصت كل ما يجري معي لتلك المعلمة، بكت عندما سمعت ما نمر به، وأصرت أن تنشر الرواية ولكن تحت أسم مزيف،(موت) كان اللقب الذي اخترته، وكان بداية كل شئ، لم يتبقى سوى أختيار عنوان مناسب للرواية، فكرت قليلاً قبل أن أجيب

(في عدلون لي ذكرى)

هكذا سأسميها، لطالما تنهدت أمي وهي تبكي وتقول

(ما أجمل تلك الذكريات)

عدت إلى المنزل والدي قد عاد، استشاط غيظ ا عند دخولي، وكالعادة لا أخبركم بما جرى، لكن هذه المرة قاطع توحشه هذا، إتصال جفل بأرضه للحظات قبل أن يرحل ليرد على الهاتف رفعه بأرتباك وأجاب؛ أنا في هذه اللحظه فريت إلى والدتي التي كانت تصلي وأخبرتها بما جرى،بموضوع الرواية التي لم أخبرها عنها مسبقا ، وطلبت منها المساعدة لأني إلى الآن لم أضع نهاية واضحة روايتي، طرق الباب، ركض عثمان بسرعه وفتحه، خفض رأسه بأحترام، ما كنت أعتقد أنه يمتلكه؟ دخل رجلان ضخمان، يرتديان بذه سوداء، وخرج من بينهم، رجل مربوع الطول، طيب الهيئه، جلسوا يتكلمون بهمس، وكان أخي يتنصت من خلف الباب، لمح ذلك الرجل أخي، فطلب من معاونيه إحضاره، أعجب بقوة أخي وصراحته، وأهاله منظر الجروح على جسده، ولكن أخي أدار ظهره وعاد الغرفه دون أن يرد على سؤال الرجل عندما سأله عن سبب تلك الجروح، وراح يرتجف وهو يعلم ما سيصيبه من والدي

عندما يذهب ذلك الرجل، حقا خرج ذلك الرجل، ولكن العجيب هو دخول والدي بهدوء و إبتسامه تعلو وجهه :

أنت قم وجهز نفسك سترحل بعد قليل.

نظر إياد إلىّ متسأل، ولكن كان على وجهي نفس علامات الدهشة التي لم تطول عندما أدركت ما فعل ذلك الوضيع الذي يسمى أبي، كان قد تاجر بالمخدرات وخسر صفقه كبيره مع هذا الرجل لذلك أراد الرجل ماله، ولكن من أين ياترى؟

وقد كان ذلك الرجل لا يمتلك أي ولد، فقرر أن يأخذ أخي بالمقابل ويربيه، عندما علمت أمي لم تعلق هزت رأسها بصمت، وكأنها تقول، حياة كريمة تنتظره هناك، أما عني فقد كنت سعيدا من أجله سيتخلص من ذلك الجحيم، ضممته وودعته، كان أيضا سعيدا أخبرته أني سأجد حل وسنجتمع معا يوما ما، لم تكف والدتي تلك الليلة عن البكاء، فقد إزداد همها وغمها...

*****

عاد كل شيء إلى طبيعته، وعدت أنا لوحدتي، وعاد ذلك اللعين إلى فتيات الليل ونبيذه، متى يموت؟ لم أعمار أمثالهم طويلة؟، إلى متى سأظل أعيش في ذلك الجحيم الذي لا يطاق، في أحد الليالي جاء اللعين مع واحدة من معارفه، وكان قد سكر لدرجه كبيره، كنت أمي تموت عطشا في الداخل لم أتحمل، ضربت الباب بقوه أستنجدهم بكوب ماء، فتحت تلك الفتاة الباب وهالها ما رأت، فحملت بيدها كوب الماء ودخلت لوالدتي، كادت تبكي، لقد قرأت بعينها خوف مجهول، مسكت يدي وهمست قبل أن تخرج (أهرب، لا تجعله يتحكم بكم هكذا، أهرب قبل فوات الأوان)، نظرت إليها بصمت وهي تخرج، لم تساعدنا أحدهم من قبل، دعوت ربي في تلك الليلة أن ييسر لي الأمور، وأن يفتح لي باباً.

في صباح اليوم التالي علما عثمان بشأن كوب الماء، وظن أنني من جلبته، لذلك توجه نحوي ساخطا يريد ضربي، لكن أمي دفعت بنفسها أمامه، رأيت بعينها قوى لم أشاهدها بها من قبل، هل هذه أمي؟ ما أن مد يده يبعدها، حتى صفعته بيمينها صفعة رنت منها جدران المنزل.

لحظات من الصمت، نظرات التحدي بعيون والدتي، الذعر الذي إجتاحه فجأة، بالأمس سكتت أمي يسبب العادات والتقاليد التي تنظر للمطلقه على

أنها نكرة، وتنفى بمثل هكذا مجتمعات، لكن السم الذي شربته أمي، لم تذقه أنتم، لم تجربوا طعم النوم جائعون، أولادكم مرضه، برد لا يوجد ما يدفئ الجسد، هل ستواجه أمي أخيرا ؟

نعم...

رأيته يغلى ويفور أمام عيني، جذبها من شعرها بقوه، عندما حاولت أن أدفعه عنها دفعني خارجا وأقفل الباب، لم أسمع إلى صوت الصراخ يردد صداه في أرجاء المنزل، لحظات هنالك شيء أنكسر ومن بعده عم الهدوء....

خرج من الباب، توجه مباشرة إلى غرفته مرتعب، يديه مليئه بالدم، هرعت للغرفه، ماذا؟ ماهذا؟ لقد ضرب رأس أمي بالمرآة، صرخت حاولت أيقضها لكن، لكن، أمي لم تستيقظ، أمي لم تستيقظ، صرخت هزيت جسدها البارد، همست في أذنها بهدوء وأنا أرتجف خوف:

(أمي)

(كارو)

(أمي)

لكن لم تجبني، لقد أستجاب لها الله لقد أراحها، لقد خفف عنها عذابها، ضممتها لآخر مره، قبل أن يلقى على جسدها التراب، عدت للبيت دخلت

الغرفه أتأمل ثوب صلاتها، مكان سجودها، وبكيت بحرقه لم أبكي مثلها من قبل، صرخت، حتى الجدران أحست بي وراحت تبكي وتنوح معي، فتردد صيحاتي في ظلام تلك الغرفة، هنا بعد أن هدأت، سمعت، نعم، سمعت صوت ضحكات إمرأه، من تلك التي تضحك ببيت حرمت فيه الإبتسامة يا ترى؟

فتحت الباب، توجهت نحو غرفته اللعينه، صدمت مما رأيت، فتاة،أكواب نبيذ، من هي تلك التي ماتت قبل قليل؟أ لم يكن هو من قتلها؟ لولا عاداتكم الجاهلة ما ماتت أمي، وما كانت لتسكت على تلك العذابات، وماذا؟ تكرم بليلة جنازتها، بفتاة ليل تعاشر زوجها، أكلني الغضب، صاح بي ذلك اللعين القذر، لكن نظرت له بسخرية و إشمئزاز، نظر إلى عيوني بخوف،

كانت نظراتي نفس نظرات أمي.

علقت بغضب وبنبرة حاسمة :

(أخرجي انتِ من هنا، ودعينا نصفي الحسابات)

خافت الفتاة ورغم منع والدي لها بالخروج خرجت، نهض عن سريره بكل جرأه وهو يقول :

(سألحقق بأمك لعلها تشتاق لك)

وما أن وقف أمامي حتى هويت على وجهه بلطمه تحمل فيها كل وجع شعرت به يوماً ما،كل وجع أذاقه لي يوم ا.

جفل بأرضه، هرعت إلى زاوية الغرفة، وأنا أشعر بأقتراب حتفي، أقترب مني مسرعاً، نظرت حولي، هناك على الطاوله، ما أن رفع يده حتى نزلت على رأسه بزجاجة النبيذ الزجاجية التي كانت عليها، تركته غارقا بدمه وهربت من المنزل، توجهت إلى بيت المعلمه، خائف أرتجف، ضمتني بحنان وعطف، لقد قصصت عليها كل ما جرى، فوجدت خطر على بقائي هناك، فأخبرتني بالوكالة الأمريكية التي أبدت إعجابها بروايتي وطلبت عقد أتفاق معي، لم أبدى أي ردة فعل، لم أفكر حتى، وافقت على الفور، وسرعان ما تركت لبنان، بعد جلوسي يومين بمنزل المعلمة...

*****

(ضوء وسط الظلام)

هبطت الطائرة التي كانت تقلني من لبنان، بمطار الولايات المتحدة الدولي، أنهيت المعاملات، وكان بإنتظاري شاب أمريكي لاتيني، قد أرسلته الوكالة لأرشادي، نزلت في تلك الليلة بفندق من الطبقة الأولى، سرير كبير، مدفئة، إنارة، أضواء، تلفاز، حوض استحمام، غرف راقية بإمتياز، لم انتظر طويلا ، ما إن دخلت حتى خلعت عني الثياب، ورميت بجسدي تحت الماء الساخن، تاركا لها مهمة تذويب الجليد الأمريكي الذي أجتاح بدني منذ وصولي، كذلك الجليد والرعب الذين يتغلغلان بثنايه قلبي، بدون أي مقدمات رحت أبكي، تركت تلك الدموع تثور براحتها على وجنتي، والماء بدوره يمسحها، يقال أننا في بعض الأحيان نكبر فجأة، دون أن نشعر، دون العمر، فالعمر مجرد رقم بلعبة القدر، نكبر فجأة من التجارب التي نمر بها، نكبر فجأة من الآلام التي تجتاحنا، من الصعاب التي نعيشها، نحلم بشيء، ويخطط لنا القدر أشياء أخرى، فلطالما تمنيت أن أكبر بسرعة لكن الآن أود لو أعود صغير...

في تلك الليلة، مددت سجدة صلاتي، دعوت الله أن ييسر لي أمري، أن يلهمني القدرة التي لابد أني سأحتاجها بهذا الطريق، وغفوت كعادتي هناك،

بوسط الليل أستيقظت حالة رعب دبت بجانبيه، مجهولة السبب، أويت إلى فراشي، غطيت بدني لأمنع عنه الصقيع، ولكن لم يغمض لي جفن، ورحت أبكي، كعادتي الدائمه فيما بعض، البكاء ينظف الروح، ويريح القلب، لا مانع أن تبكي، لا مانع أن تعبر بالطريقة التي تحبها، فما البكاء إلا لغه تتحدث بها المشاعر.

في اليوم التالي أستيقظت بدلت ملابسي، ونزلت الشوارع، لأول مرة أشعر بطاقة الشمس، شعور جميل يدغدغ قلبي، أحسست بالهواء وهو يلفحني برقه، تلمست قدماي الشوارع بكل حرية، لأول مرة أتفلت من كل القيود، لقد أصبحت حر، لقد جاء عوض الله بالوقت والمكان المناسب، كدت أطير من السعادة، عندما لمست بيدي مياه البحر ورمال الشاطئ، وددت لو أرقص وهكذا فعلت، فأنا حرٌ الآن، طليق، الحرية هي غاية كل فرد وحاجته، لو لم تحد مجتمعاتنا تلك الحرية، ومنعت المرأة من حقوقها ما كانت أمي لتموت، لكانت الآن معي، هنا، ترقص تحت ضوء الشمس، لكانت صرخت بوجه الظلم، لكن للأسف مجتمعاتنا يعتقدون أن المرأة مجرد سلعة تباع وتشترى ولك حريه التصرف بها كيفما تشاء، آهٍ لو أستطعت تغير مجتمعاتنا، لم يكن هناك فتاة مظلومة حينها؟ لن ترضى بالرضوخ للرجل مستبد؟ لم نكن نسمع

عن أمرأه سلبت حقها، أو لم يكن هنالك أمرأه تموت مظلومه، آهٍ فقط لو أستطيع!...

مرت الأيام، وتسلل الضوء إلى عالم ظلامي شيئا فشيء، حتى أصبحت واحد من أهم كتاب العرب في الغرب، لقد وجدت نهاية قصتي الآن، الآن عرفت كيف سيكون ختام قصتي وروايتي الأولى (في عدلون لي ذكرى)، لقد وجدت الختام،والنهاية، لم يمت والدي في تلك المرة، وعلمت أنه تزوج وأنجب طفل آخر، وبعد فترة وجيزة، تم إلقاء القبض عليه من قبل السلطات اللبنانية، بعد أن تم ضبطه وهو يبيع المواد المخدرة للأطفال، وكذلك زوجته الجديدة رفعت دعوى قضائية عليه بتهمة التعنيف، ونال ما يستحق، وعن أخي لم أعرف عنه شيء، أين هو؟ ماذا يفعل؟ لكني على يقين أنه يعيش حياة سعيده كما كان يخطط...

*****

بعد مرور خمس سنوات...

نسمة من الماضي

ها هو ذا ببذه سوداء، راقيه، يخرج من عربيه سوداء حديثة الطراز، ويلوح بيديه للحشود التي إجتمعت لإستقباله، يرسم على وجهه إبتسام يخبئ تحت ألف سؤال :

_أستاذ عمر ما عنوان كتابك الجديد؟

_أنه تحت عنوان (خلف جدار الصمت)

_هل يمكن أن تعطينا نبذة عنه؟

_بأختصار هو قصة حياتي التي لطالما قصصتها للمرآة، هو ماضي عشته، رسالة أوجهها لكل إمرأه، بأختصار هو ألوان بيضاء بطولة سوداء.

*****

الكثير من القبور، سار بهدوء، يعرف عمر وجهته تمامًا، فمذ خطت قدمه صباح اليوم بمطار بيروت يعرف مقصده جيدا ، قبر والدته، توقفت قدميه عند ذلك الضريح الذي دون بأعلاه :

كارمن إلياس متيرك

تاريخ الوفاة:

1720/5/4

جلس بصمت، يقلب أنضاره على قبر والدته، أخرج من خلف ظهره، قالب حلوى، اليوم يوم مولده، لقد بلغ الستة وعشرون، إبتسم وهو يغني أغنية عيد الميلاد، هو ووالدته يصادف عيدهم3 بنفس اليوم :

سنه حلوه يا جميل...

سنه حلوه يا جميل...

سنه حلوه يا (كارو)...

سنه حلوه يا جميل...

الدموع تناثرت، وهو يغني بصوته المرتجف، هب الهواء فجأه، ولمح طيف والدته، كما شاهدها مسبقا بتلك الصورة التي دسها قديما بجيبته، فستانها الأبيض وشعرها الأسود، كأنها تبتسم وتسير نحوه، خالها تحدثه :

ـهيا يا صغيري تمنى أمنيه وأطفئ الشمعه!

ـلكني لا أؤمن بهذه الخرافات!

ـومن قال عنها خرافات، هي دعاء، ترجوا من الله أن يحققه لك، الله لا ينسى يا صغيري، وبابه دائما مفتوح، أقصده فهو لا يرد سأل،هيا تمنى وأطفأها... أغمض عمر عيونه، وفتحها بعد لحظات، وما أن نفخ الشمعه، حتى تلاشى طيف والدته بالهواء، إبتسم ومسح دموعه، وهو يأكل قطعة الحلوى، الهواء كان قوي، جلس طويلاً هناك، لكنه لم يلتفت إلى تلك الورقه التي وضعت بعناية تحت الحجر إلا قبل رحيله بقليل، فتحها، قلبه أرتجف عندما قرأها، تناثرت الدموع بختام المشهد:
أخي العزيز،

ها أنا أكتب إليك من أمام قبر أمنا الحبيبة، ألتفت إلى هذا المكان الذي يجمع ذكرياتنا المشتركة، رغم أن مشاعرنا قد تفرقت منذ زمن بعيد. أعلم أن الكلمات لن تعيد ما فقدناه، لكنها قد تساعد في فهم بعض الأمور التي لم يكن لنا فرصة للحديث عنها.

أتذكر طفولتنا، كيف كنا نعيش تحت نفس السقف، لكن كل واحد منا كان يشعر بالوحدة. كان والدنا في تلك الفترة قاسيًا، وكان تصرفاته تترك أثرًا

عميقًا في نفوسنا. لم يكن لنا خيار سوى تحمل ذلك، ورغم الألم، فقد حاولنا أن نبقى متماسكين قدر الإمكان. أذكر كيف كنت أنت، شقيقًا وصديقًا، تعاني مثلي، وتبحث عن الأمل في لحظات اليأس.

كنت أود أن أقول لك إنني لم أكن أريد أن أراك تتألم، وكان من الصعب عليّ أن أرى معاناتك دون أن أتمكن من تقديم المساعدة الحقيقية. تلك الفترة تركت جروحًا عميقة في قلوبنا، وأصبحنا نحتاج إلى الهروب منها بطرق مختلفة.

في ختام رسالتي، أريدك أن تعلم أنني لا أستطيع أن ألقاك مجددًا خوفًا من أن يفتح ذلك الجروح القديمة، التي لم نتمكن بعد من معالجتها. ربما يكون من الأفضل أن نبقى بعيدين لنحمي أنفسنا من تكرار الألم. لكنني أؤمن بصدق بأنك ستكون بخير، وأتمنى لك كل السعادة والراحة التي تستحقها.

تقبل تحياتي وأطيب أمنياتي.

أخوك،

[إياد]

أبتسم عمر وهو ينهض، لقد أنجلت الغيوم، وظهرت الشمس أخيرا في السماء،وأستجاب الله للدعاء، وضع أكليل الورد على الضريح، وسار خارج المقبرة، لينشد آخر حروفه، بحثا عن ما يخبئه له الزمن خلف ذلك الضباب الذي خيم على مدينة بيروت وهو يركب طيارته ويتجه بها نحو أميركا، ليكمل فصول أخرى من النجاح والتألق بكتبه وأحلام، كاسرا جدار الصمت الذي لطالما حدّ سقف طموحاته.

تمت بحمد الله.